تجربة المسرح الإسلامي في الأدب الجزائري

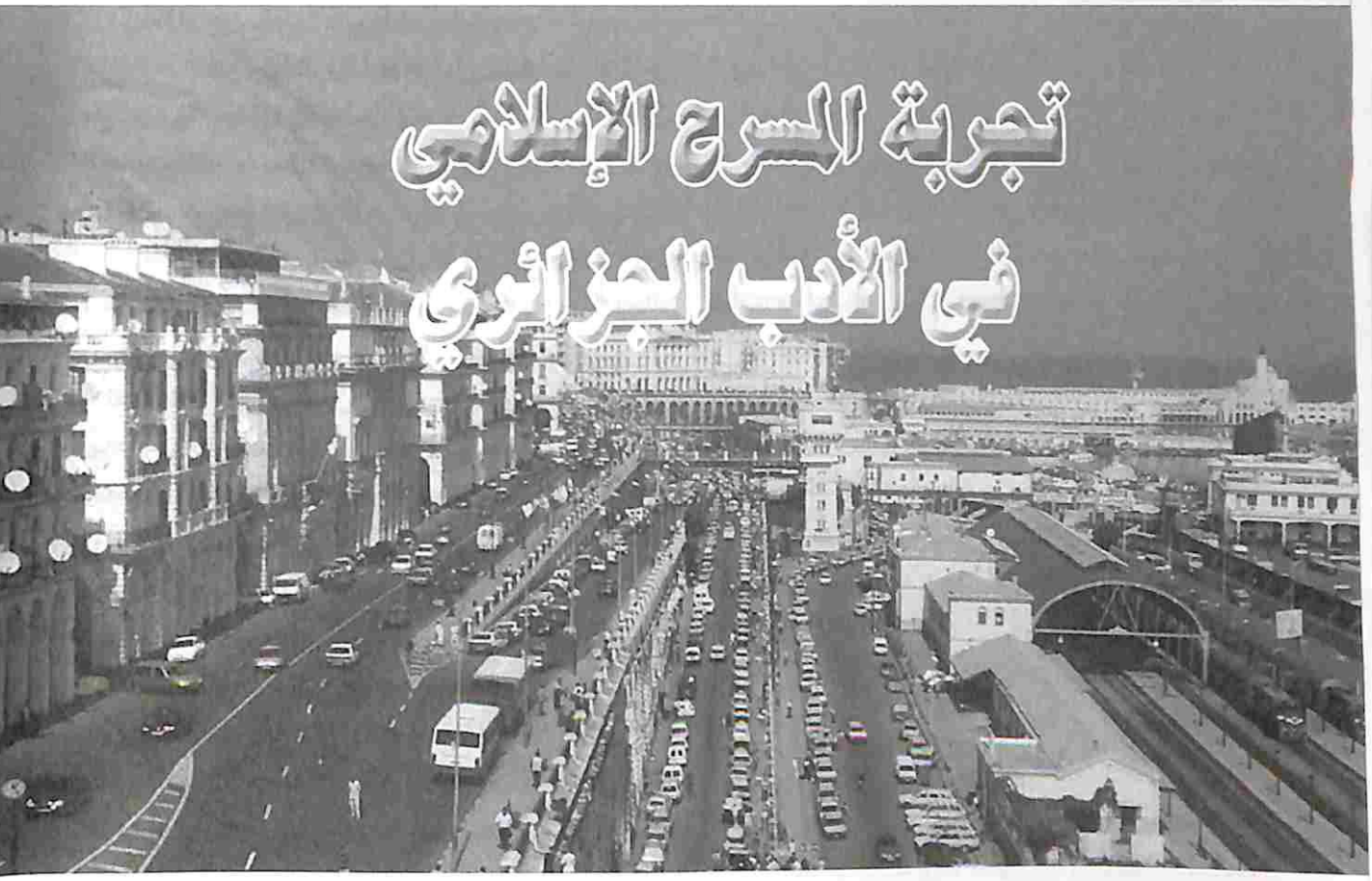

بقلم: د. حفناوي بلعلي*
الجزائر

ظهر مفهوم الأدب الإسلامي على يد نخبة من الكتاب الإسلاميين الذين حرصوا على بلورة الأدب الإسلامي، وعملوا في الوقت نفسه على وضع عدد من النصوص الإبداعية.

إن مصطلح الأدب الإسلامي له مجال خصب في التفكير ومجال لاكتشاف أبعاده المختلفة. وهو ما يأخذ اتجاهه في طرحه لنظرية الأدب الإسلامي باعتباره جزءا من مفهوم الجمال في الإسلام، وطبيعة العمل الأدبي وما ينطوي عليه من تجارب شعورية. وهو أيضا دعوة إلى فتح منافذ الإنسان الحية لإدراك عظمة الخالق تعالى، كما تتجلى في مخلوقاته، وهو ما يحرك في الفنان طاقات العطاء والإنتاج الفني والأدبي.

إن الإسلام قد قضى على مصادر التوتر، التي قال بها الوجوديون وغيرهم، ولكنه خلق في أعماق المؤمنين توترا من نوع جديد، يعرف هدفه معرفة يقينية، ووضع أمامه غايات وأهدافا تثير وجوده. وتبعث التوتر في كيانه، إنه توتر الإحساس بعناء الإنسان وضرورة الاستعداد لصياغة مصيره، وتحقيق الانسجام بين مصيره ومتطلبات وجوده الملحة[1].

ومفهوم الأدب الإسلامي عند الدكتور عماد الدين خليل ، هو « التعبير الجمالي المؤثر بالكلمة عن التصور الإسلامي للوجود». فلا بد من اجتماع الأصل العقائدي والمهارة الفنية، وهو ينعى على بعض من مارس الأدب الإسلامي قصور قابليته الفنية، وتقصيره في مجال الاطلاع على النتاج الأدبي المعاصر. ويلاحظ أن ذلك متأت من المكانة الثانوية، التي يوليها بعض المثقفين الإسلاميين لقضايا

* أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عنابة، الجزائر.

الأدب والفن، ويضيف إلى تلك العوامل تخوفهم من أن يكون الإقبال على الأدب والفن بابا للإثم والرذيلة. كما أن هناك عوامل فنية منها، غياب النقد الإسلامي وصعوبة التواصل بين الأدباء الإسلاميين.

إن الأدب الإسلامي في مفهوم المنظر عماد الدين خليل يحتل مرتبة وسطا، فلا هو أخذ بالقسر الطبقي كما تقول النظرية الاشتراكية، ولا هو متحلل من كل قيمة كما تقول النظرية الليبرالية، إنه أدب يوفر فرص الإبداع والاستكشاف والحرية، ولكن يلزم الذات الفنية بضوابط أخلاقية، تجعل من عملها الفني خدمة للإنسانية والحق والخير والجمال[٢].

مضامين المسرح الإسلامي في الأدب الجزائري

يعد المسرح الإسلامي مصطلحا ناشئا في الأدب الجزائري، أخذ يداعبه بعض الكتاب هنا وهناك خلال السنوات الأخيرة،وابتداء من الثمانينات، هذا الشكل الذي ترعرع ونشأ في أحضان مايسمى بشباب الصحوة الإسلامية،والذي اعتبر اتجاها أو شكلا جديدا من أشكال المسرح الجزائري، على اعتبار أن المشرفين عليه والممارسين له أغلبهم شباب.

ومن أبرز مميزات المسرح الإسلامي في الجزائر أنه مسرح لا يخالف مضمونه ولو في أبسط الأمور ماجاء به الشرع، وعادة ما تكون مواضيع المسرحية الإسلامية منبثقة من الواقع المعيش، عاكسة بدورها حياة يومية في مجتمعنا بصفة دينية وأخلاقية؛ مسرحيات تشخص الداء أو الخلل من خلال تأزم الحدث المسرحي، ويشترط في التمثيل الإسلامي ألا يمثل بشخصيات تاريخية لها قداستها في نفوس المؤمنين؛ كشخصيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، لأن إظهارهم يفقد في النفوس قداستهم واحترامهم، والمحجوب دائما محترم ومرغوب، وأن لا يظهر في التمثيل أي مظهر من المجون والخلاعة؛ كالرقص وظواهر الخمر، وأن يستهدف التمثيل مصلحة الدين والعلم والأخلاق، لكونه يوضح الفكر ويحدد الواقعة ويصور الحادثة ويثير العاطفة، لأجل تربية الفرد والأسرة والمجتمع[٣].

لكن بالتمعن والتتبع للمسرحيات الإسلامية هنا وهناك، نجد مآخذ جمة وسلبيات هذا الشكل، ومنها ضعف الجانب التقني في معظم الأعمال المسرحية. ويظهر هذا الضعف من خلال استغلال الفضاء والمساحة المسرحية على مستوى الخشبة، وكذا التحكم في توزيع الأدوار والممثلين.

وهناك إشكالية النص المسرحي الإسلامي حيث حلت محله الارتجالية والهزلية والتهريجية في أغلبها، والتي لا تستند إلى نص ثابت مما يثير نوعا من التذبذب في الأفكار وطرحها. فالكتابة المسرحية عند الفرق الإسلامية منعدمة تماما، فمعظم الفرق تحضر مسرحياتها بتصورات مرتجلة، وأفكار غير ثابتة لا تخضع لضوابط الكتابة المسرحية والفنية. والمشكلة عند المسرحيين الإسلاميين هنا، أنهم لا يسعون إلى إيجاد بدائل فنية وإبداعية مواكبة للعصور وتطوراته. والسبب في ذلك أنهم ما يزالون يلبسون رداء الوعظ والإرشاد الجافين. أضف إلى ذلك أن معظم الفرق الإسلامية، لا يسمح لها مستواها التكويني أو إطارها التنظيمي بالنضج الفني والإبداع المسرحي، أو الممارسة الدائمة على خشبة المسرح، لأن المسرح فن وهو سلاح العصر. وهو ثقافة إنسانية أكثر منها عقائدية، يستعمله كل من تلجلج في صدره أفكار وآراء، فلا فرق في التجويد الفني بين المسرح الإسلامي أو اللائكي أو البوذي. المهم تحقيق عامل الجودة والشرط الفني، ويجب أن يعرف أن المسرح والسينما وجميع الفنون الأخرى هي ثقافة عامة، وهذه الثقافة أصلا إنسانية وعامة ومشتركة من إنتاج إنساني، يشترك فيها كل خلائق المعمورة، وغير مقصورة على ملة معينة، والملاحظ على المسرح الإسلامي في الواقع، أنه لا يهتم إلا بالأعمال المسرحية ذات الطابع التاريخي عموما، كالحديث عن عدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر ابن عبدالعزيز، وإثارة مواضيع مستهلكة كالتآمر اليهودي وإسقاط الخلافة وقضية فلسطين وأفغانستان ، مما ضيع هيبتها وأغاض الاهتمام بها.

والحقيقة أن علاج مشاكل المجتمع وإحداث التغيير الفكري والروحي لدى المسلمين لا يكفي له إبراز المثالية في المجتمع المنشود، كمجتمع الصحابة والتابعين، بل لا بد من

طرح مشاكل المجتمع وهمومه وعيوبه، وتسليط الضوء على مكمن الداء، حتى يتجاوب الجمهور مع مشاهد المسرحية، ويتأثر بها وتعمل عملها فيه.

هذا ونجد مع انتشار موجة المسرح الإسلامي ظهور عدد كبير من الفرق المسرحية الرائدة : فرقة الهدى للمسرح والأناشيد الإسلامية لمدينة العلمة ١٩٨٢، وظهرت جمعية أخرى إسلامية ببسكرة تسمى جمعية الاعتصام ١٩٨٥، وكان في البداية تقوم بإحياء بعض السهرات الدينية، وأغلب المسرحيات التي أنتجتها اجتماعية، ومنها الحاج موسى، وعالم وطاغية، ومسرحية أخطبوط المؤامرة.

كما نجد توالي ظهور العديد من الفرق في عموم ربوع الوطن، وقد كونت لها مهرجانا احتضنته سكيكدة، وهو المهرجان الأول للأنشودة الإسلامية والمسرح في جانفي ١٩٨٩م، وحضرت المهرجان ١٣ فرقة، نذكر منها أهمها: فرقة الغرباء لمدينة المدية، فرقة الصحوة سكيكدة، فرقة آفاق إسلامية، جمعية الفلاح توقرت.

أشهر الفرق المسرحية الإسلامية

ومن أشهر الفرق المسرحية الإسلامية فرقة مسرح النهضة عنابة ١٩٨٩، وكان أول عمل لها يا عاقل يا مهبول ، اقتباس عبد الحميد الوكيل عن رواية لا شيء يهم لإحسان عبدالقدوس، وهي قضية مهندس كان في نيته خدمة الوطن، فيصاب حين اتصاله بالواقع وعند الممارسة بخيبة أمل، حين تواجه مبادئه بالفساد، من هنا تبدأ معاناة غربته النفسية والدونكشوتية، ولكنه يظل ثابتا أمام الإغراءات إلى أن يطرد، ويستمر في هذه الحالة في مواصلة إنجاز مشروعه ومقاومة التهريب. مسرحية يا عاقل يا مهبول معالجة ساخرة لواقعنا الاجتماعي من وجهة إسلامية، مع كثير من الطرح المباشر. حوار المسرحية بسيط يراوح بين الواقعية والرمزية البسيطة. وبعد هذه المسرحية، قدمت فرقة النهضة مسرحية المصروع عام ١٩٩٠.

ومن المسرحيات الإسلامية مسرحية «كوبي واش بيكم يالعرب» من إنتاج فرقة آفاق الفن الإسلامي باتنة، أرادت م سرحية « واش بيكم يالعرب» ، من الناحية الفنية مملة بإيقاعها الركيك، ومشاهدها الكوميدية الساذجة الخالية من الحد الأدنى من الرؤية المسرحية الأبجدية. يتبين ذلك من فكرة النص التي طرحت موضوع التبعية إلى الخارج. من خلال شخصية " قسوم" ، وجملة المتاعب في رحلته الباحثة عن مستلزمات، تمكنه من تصميم بدلة تقليدية. طلبها منه صديق له أيام الثورة.

إن المسرحية مقبولة ضمن منظور الهواية. دائما بلغتها وإمكانياتها وإيجابياتها من منظور التأثير الإيجابي، الذي قد تتركه على المشاهدين، حين تدغدغ عواطفهم وتستثير فيهم حاسة التهريج والسخط على الآخر، دون مبررات. فأين الفن على خشبة المسرح في تجربة المسرح الإسلامي بالجزائر يا ترى؟.

مسرحية «المسعور» أنموذجا.. عرض وتحليل

ومن المسرحيات الهامة التي تعد مقاربة فكرية وفنية للمسرح الإسلامي مسرحية «المسعور»، من تأليف وإخراج عبدالحميد الوكيل، وإنتاج فرقة النهضة بعنابة. والمسرحية يمكن أن توظف ضمن المسرح الإسلامي، لأن رسالتها ظاهرة في أفكارها وطروحاتها النقدية والفكرية، الداعية إلى البديل الإسلامي.

وتبدأ المسرحية بأسلوب فكاهي ساخر و نقد سياسي مباشر، أشخاص يلتقون بلباس كرنفالي في مكان عبثي، ليمارس أحدهم السلطة العسكرية، ويمارس القهر ضد الآخر، الذي ينكر ذاته ولا يعرفها، ولا يفهم إلا تطبيق الأوامر لينفرد صاحب السلطة بالقرار. وتستمر المسرحية في نقد الزعماء السياسيين واللائكيين والشيوعيين والفنانين والثقافة الراهنة. كما طرحت قضايا التاريخ والصراع الطبقي بأسلوب فكاهي. والملاحظ بداءة أن المسرحية لم تستطع التركيز على فكرة واحدة فتشعبت الأفكار، كما أن اعتمادها في طرح الأفكار على (الفلاش باك) المتقطع أفقدها المحور القصصي المتنامي، والمتتابع حتى يصل إلى ذروة الفعل الدرامي.

وتعرض المسرحية بالنقد سياسية الانفتاح والاستهلاك واستيراد الموز والكاكاو والكيوي، والمواد الاستهلاكية والكهرومنزلية، والبلاد تعيش في أزمات مختلفة، بحيث تبرز المسرحية أن السياسة غير راشدة،

وأن هناك إشارات رمزية وتلميحات إلى الاختلاسات والرشوة، والأمراض التي أصابت السلطة العليا، وأودت بالوطن إلى الأزمة :

«السبتي : اسمع .. اسمع. **قل لسكان المدينة راهو جاي وجايب معاه كل خير، وحتى البنان.. قلهم راه مشتاق لكم كثير.. اللي أنتم مشتاقين ليه، ابعثونا النقل، حضرونا حفل رسمي بالطبول والغايطة والراقصات ترقص والبراح يبرج.. ويقول هاذي عشرة دولارات من عند الوزير الفلاني على رأس الزعيم اللي الرجع بعد غيبتو... وقول خويا قول.. هاذي مائة ألف دولار من عند وزير المال، قال في خاطر ٢٦ مليار دولار.. وقول خويا قول.. دي.. دي..**».

وفي لوحة من لوحات المسرحية تأخذ في الحديث عن الديمقراطية (الأصلية)، والديمقراطية (المشوهة).

هذه الديمقراطية التي قادت البلاد إلى الخراب والفوضى والصراعات، وتبذير الأموال وتفشي الثقافة الهابطة.

وفي المشهد الأخير ترجع المسرحية في طرح القضايا السياسية، التي تعيشها الجزائر مركزة على قضية الديمقراطية، لأن المسرحية أنتجت في فترة التعددية السياسية وحرية التعبير، وظهور الأحزاب كالفطر والفقاعات.. وتحاول أن تشرح قضية الديمقراطية.

وتنتهي المسرحية بحالة هستيرية، آهات، ضحكات، صراخ، حركات جنونية غير عادية، الشخصيات تحطم التماثيل والرموز الواحد تلو الآخر، وفجأة تتغير إحدى شخصيات المسرحية، وتتحول إلى هيكل عظمي، تسمع طلقات نارية متتالية، وتختفي كل شخصيات المسرحية عن الأنظار، ثم ظلام مع استمرار الطلقات النارية. هذه الطلقات التي تحمل أكثر من رمز ودلالة، ناهيك عن أن مسرحية «المسعور» كلها رموز ساخرة ناقدة، تناولت كل القضايا الراهنة، ووضعتها على محك التصور الإسلامي في الميزان السياسي للإسلام.

مسرحية «المسعور» جسدت طروحاتها الفاضبة على خشبة المسرح، مهما كانت طبيعتها، اجتماعية أو سياسية أو عقائدية أو فكرية، بحيث صورت المثقف ممزقا ضائعا تتقاذفه التيارات، وتارة يبرز المثقف سلبيا والثقافة من سقط المتاع. والتركيز على أزمة الثقافة يملي بالضرورة مفهوم الأزمة الديمقراطية، فإنها تكاد تتضاءل لتصبح أزمة حرية التعبير عند المثقفين، وعلى الخصوص الذين يحملون مشروعا حضاريا، فالأزمة ليست أزمة ثقافة أو ديمقراطية، هي أزمة شعب في عمومه، أزمة لا مع الديمقراطية السياسية وحدها، وإنما الديمقراطية الاجتماعية والاقتصادية السائدة.

وتبلور رؤية المسرحية للأزمة في تعلق أنصار الاتجاه (الإسلامي) في المسرح بفارس الأمل شبه الميتافيزيقي، القابع فوق عرش الحلم بالسلطة ، والحصول عليها لإحداث فعل التغيير وتحقيق المشروع الإسلامي . لكن المشكلة أن هذه الرؤى نجدها حاضرة حينا ومنكسرة أحيانا أخرى ، لما تتعرض إليه من صدمات وضربات من قبل السلطة المضادة ، أو الثقافة السائدة .

هذه الرؤية للمسرحية في تبرير القضايا والمسائل الكبرى وتعليلها بأسباب قريبة، تعوزها فكرة التعمق أكثر في المسائل، هذه الرؤية ناتجة عن إيمانها المطلق بأن الأشياء مطلقة، وربما هذه التصورات هي إسقاط لثقافة غير راسخة وفي طور التكوين.

كما أن الغضب الذي تحمله مسرحية «المسعور» على الواقع، جاء معظمه غضبا جزئيا وانفعالا موقوتا سريع الزوال، أكثر من ذلك أن هذا الغضب على الوضعية قاصر، فهو لا يتجاوز « عملية التنفيس» عن الكظوم المكبوتة، وبالتالي فقد كان انعكاسا سلبيا لمناخ الهزيمة على أرضية الواقع.■

الهوامش:

(١) عبدالرحيم حسن، نحو نظرية للأدب الإسلامي، أسبوعية العالم، عدد ٣٣٦، جويلية ١٩٩٠، ص٥٤.

(٢) عماد الدين خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٠، ص ١٢٠.

(٣) نبيل حاجي، إشكالية المسرح الإسلامي، مجلة العقيدة، ١١ ديسمبر ١٩٩١.

(٤) بوعلام رمضاني،القاعدة والاستثناء، يومية المساء، ٢٠ جانفي ١٩٩١.